الاوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية

ب ـ ظهور نظام إمرة الأمراء : 324 – 334 هـ/ 936 – 946 م

لقد حدث تطور جديد في شؤون الحكم في عهد الخليفة الراضي حين بذلت محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك . وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلده على مقاليد الحكم وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم ، وأزال نفوذ الوزراء ، وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانباً كبيراً من العصر العباسي الثاني.

ابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام(342 هـ/ 936 م) على حساب منصب الوزارة. ذلك أن الراضي استعان في إدارة شؤون دولته ببعض وزراء كانوا ضعافاً عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ ، حتى أضحوا عرضة للتنكيل والمصادرة. ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكك الذي ساد بينهم ، والتنافس على مركز الصدارة، وتفشي الحسد بين قادتهم.

شعرت الخلافة نتيجة هذه الأوضاع المتردية ، بضعف الوزراء ، وبعجز الأتراك ، فراغ الخزانة ؛ فأخذت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور. فاستدعى الخليفة الراضي ، محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وسلمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات الدولة كلها ولقبه (أمير الأمراء) . وهذا المنصب هو عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد تتوفر فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية .

وقد وصف ابن الأثير أوضاع دولة الخلافة العباسية في عهد الراضي فقال : (... ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق ، وخوزستان في يد البريدي ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس ، والري و أصفهان و الجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد و شمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي ، ويلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان في يد الديلم. والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي) .

ويبدو أن نفوذ ابن رائق قد ضعف في عام (326هـ/ 938 م) بفعل منافسة الأمراء له. فقد حاربه أبو عبد الله البريدي حاكم الأهواز، كما خرج عليه أحد قادته ويدعى بجكم الذي دخل بغداد في عام (327 هـ/ 939 م) واستولى على مقاليد الأمور وآلت إليه إمرة الأمراء. أما ابن رائق فقد فرّ إلى بلاد الشام . استمر بجكم في منصبه زهاء ثلاثة أعوام وصلت فيها الحالة العامة إلى درجة خطيرة من الفوضى والتدهور . وقتل بجكم في عام (329 هـ/ 941 م) بيد أحد الأكراد.

وقبل مقتل بجكم بأربعة أشهر تقريباً مات الخليفة الراضي في بغداد وعمره اثنتان وثلاثون سنة. وكانت مدة خلافته سبع سنوات تقريباً ، فتشاور أعيان الدولة وأفراد البيت العباسي فيمن يصلح للخلافة . فرشحوا جعفر بن المقتدر لهذا المنصب وبايعوه في العشرين من (شهر ربيع الأول عام 329 هـ/ شهر كانون الثاني عام 940 م) ولقب بـ (المتقي) .

كان المتقي (329- 333 هـ/ 940 - 944 م) مجرد ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة خاصة أبو عبد الله البريدي وابن رائق والحمدانيين. وانتقلت في عهده صلاحيات منصب أمير الأمراء إلى يد البريدي الذي برز بعد مقتل بجكم لكن بأن جعله وزيرا دون أن يقلده الخليفة هذا المنصب تقليداً رسمياً وذلك بفعل مواقفه المتقلبة ، واكتفى لكنه جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش فأضحى في حكم أمير الأمراء .

ويبدو أنه عجز عن تلبية حاجات الجند و مطالبهم المتزايدة ، وأضحى هدفاً لدسائسهم. فاضطربت الأمور في بغداد واضطر إلى مغادرتها وعاد إلى البصرة فتقلد ابن رائق المنصب مرة ثانية بعد أن استدعي من بلاد الشام فتفاهم مع البريدي و قلده منصب الوزارة . وظل الأمر على ذلك مدة ، ثم اختلف الرجلان ، فعزل ابن رائق البريدي من منصبه . فجمع هذا جيوشه وهاجم بغداد فاضطر الخليفة وابن رائق إلى الهرب والتجا إلى بني حمدان في الموصل واستولى البريدي على منصب أمير الأمراء ودخل بغداد للمرة الثانية .

لكن البريدي وجماعته لم يظفروا بمحبة الناس بفعل إمعانهم في السلب والنهب ومن جهة أخرى عين الخليفة ناصر الدولة الحمداني أميراً للأمراء في عام (330هـ/ 942 م) وأرسله على رأس جيش كثيف لمحاربة البريدي فأخرجه من بغداد وعاد إليها الخليفة في العام المذكور .

برز في هذه الأحداث القائد التركي توزون، فقلده المتقي شرطة بغداد ثم جعله أميراً للأمراء . وسيطر الحمدانيون في هذا الوقت على مقدرات الأمور في بغداد . لكن الوضع العام لم يتحسّن بفعل استمرار النزاعات الداخلية ، فاضطر هؤلاء إلى ترك

حاضرة الخلافة ، خاصة وأنهم خسروا الحرب التي نشبت بينهم وبين توزون ، وعادوا إلى الموصل بصحبة الخليفة .

ويعتبر توزون من أقوى الأمراء الذين تولوا الأمر في العصر العباسي الثاني. فقد استطاع هذا الرجل أن يستولي على الحكم من متنافسين قويين هما الحمدانيين والبريديين. وخشي من محاولة الخليفة التقرب من الإخشيديين في مصر ، فتحايل عليه حتى عاد إلى بغداد مرة أخرى، فقدم له فروض الطاعة ظاهرياً، وأوعز سراً إلى بعض أصحابه فقبضوا عليه وأجبروه على خلع نفسه ثم سملوا عينيه وذلك في (شهر صفر عام 333 هـ / شهر تشرين الأول 944م) وسجنوه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي في عام (357 هـ / 968م). واختار توزرن عبد الله بن المكتفي خليفة ولقب بـ (المستكفي) .

لم تطل خلافة المستكفي (333 - 334 هـ/ 944 - 946 م) فقد حكم سنة وأربعة أشهر استبد توزون خلالها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد ، وبقي في منصب الأمراء حتى استولي معز الدولة بن بويه على بغداد وألغى منصب أمير الأمراء. والواقع أن دولة الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أنشأه الراضي لإقامة الخلافة من عثرتها . بل زادت أحوالها سوءاً، وأن من يستقصي عهد الراضي والمتقي والمستكفي يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجال الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء .